

من قضايا  
التاريخ الإسلامي  
في كتابات محمد شفيق غربال

د. حسام أحمد عبد الظاهر  
باحث في التراث والتاريخ الإسلامي  
بدار الكتب والوثائق القومية

obeyikan.com

يُعدُّ محمد شفيق غربال (١٣١١-١٣٨١ هـ/١٨٩٤-١٩٦١م) واحداً من المؤرخين الكبار الذين تركوا أثراً كبيراً في حركة الكتابة التاريخية في العصر الحديث؛ وقد أهله الدور الذي قام به إلى وصفه بأنه مؤسس مدرسة التاريخ المصري الحديث، وأنه واضع أسس تمصير التاريخ المصري. ويُصنف شفيق غربال غالباً على أنه مؤرخ في التاريخ الحديث، وأنه لم يترك سوى كتب قليلة أهمها: محمد علي الكبير، وتاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢-١٩٣٦م، وتكوين مصر.

إن الذي بسطته بإيجاز شديد<sup>(١)</sup> لا يخفى على الكثيرين، غير أن إسهامات محمد شفيق غربال في التاريخ الإسلامي وقضاياه أمر مجهول يتم الكشف عنه في هذه الدراسة.

وقد دفعني إلى إعداد هذه الورقة الإيمان الحقيقي بأن الحدود والفواصل التي يجعلها معظم المنتمين للتخصص التاريخي بين حقول هذا التخصص ما هي إلا حدود مصنعة وفواصل متوهمة. وأن التاريخ كل واحد لا يتجزأ؛ وهو ما يتمثل في تجربة شفيق غربال كما سنرى.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف لجانب مجهول من الإسهام التاريخي لشفيق غربال، وهو ذلك الإسهام المرتبط بمجمل التاريخ الإسلامي؛ حيث إن له الكثير من الإسهامات في هذا الحقل، وهي إسهامات لم تؤخذ في الاعتبار بدعوى - غير صحيحة بالمرّة - أن شفيق غربال كان مؤرخاً للتاريخ الحديث، وهذا الكشف الجديد سيجعلنا نعيد التفكير في النظر إلى الإنتاج الفكري لهذا المؤرخ الكبير من جديد. وبطبيعة الحال لا توجد أية دراسة سابقة تناولت هذا الموضوع وإن كان بعض مؤرخي التاريخ الحديث قد أشاروا إلى موسوعية محمد

(١) هناك الكثير من الكتابات حول شفيق غربال، ومنها: عبد الرحمن زكي: محمد شفيق غربال ١٨٩٤-١٩٦١م. مجلة جمعية الآثار القبطية. المجلد ١٦-١٩٦١-١٩٦٢م. القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٦٢م، ص ص ٤٢-٤٣؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخاً. المجلة التاريخية المصرية. ميج ١١، ١٩٦٣م، ص ص ٢٥٥-٢٧٨؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م. ج ٦ ص ١٥٩؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية. الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩م، ص ص ٢٩٥-٢٩٩؛ عبد المنعم الجميبي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر «القرنين التاسع عشر والعشرين». القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٤م، ص ص ١٥٩-١٧٠؛ أحمد زكريا الشلق: من الحوليات إلى التاريخ العلمي - نهضة الكتابة التاريخية في مصر. سلسلة مصر النهضة ٨٤. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١م، ص ص ١٧٤-١٨٠.

شفيق غربال واهتمامه بفروع التاريخ المختلفة، مثل: محمد رفعت<sup>(١)</sup>، ومحمد أنيس<sup>(٢)</sup>... وغيرهما.

ويرجع تفسير عدم وجود أية دراسات سابقة حول هذا الموضوع - في ظني إلى سببين: أولهما - ما هو شائع عن أن تخصص شفيق غربال هو التاريخ الحديث؛ ولهذا فمن المستبعد أو غير المتوقع أن تكون له إسهامات مهمة أو محددة في كتابة التاريخ الإسلامي. والسبب الثاني يرجع إلى تعذر الاطلاع على معظم كتابات شفيق غربال في التاريخ الإسلامي لتناثرها في الدوريات وبعض الكتب، مع عدم وجود بيلوجرافية تهدي إليها؛ حتى إنني لم أجد - في حدود علمي - أية دراسة أو بحث في التاريخ الإسلامي اعتمد على هذه الكتابات أو كانت من مراجعه.

قسّمتُ ورقتي إلى أربعة محاور أساسية تشتمل على مجموعات من قضايا التاريخ الإسلامي - كما رصدتها - عند شفيق غربال، وهي: قضايا المصطلح، وقضايا كتابة التاريخ الإسلامي، وقضايا التاريخ الإسلامي العام، وقضايا التاريخ الإسلامي الخاص بمصر. ثم في النهاية تأتي النتائج التي يمكن الخروج بها من هذه الورقة.

### أولاً - قضايا المصطلح :

اهتم شفيق غربال بقضايا المصطلح اهتماماً كبيراً، ومن المعلوم أن قضية المصطلح من أهم القضايا التي تعين المؤرخ على فهمه للنصوص التاريخية وحكمه عليها، وقد انتبه عباس محمود العقاد لهذا الموضوع في اهتمامات مؤرخنا ذاكراً أن دراسة غربال للكلمات «أشبه شيء بالبحث عن تاريخها أو مناسباتها التاريخية»<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد رفعت: كلمته في تأبين محمد شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية العالية، ديسمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ٨.

(٢) محمد أنيس: شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث. مجلة المجلة. السنة الخامسة، العدد ٥٨، نوفمبر ١٩٦١م، ص ١٥ هامش (١).

(٣) العقاد: شفيق غربال في ذمة الله. جريدة الأخبار. ٢٥ أكتوبر ١٩٦١م؛ يوميات. القاهرة، ط ٢، دار المعارف، ١٩٨٥م، ج ٤ ص ٦١٨.

ومن معالم هذا الاهتمام قيام شفيق غربال بتكليف عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي - آنذاك - بتأليف كتاب يهتم بالمصطلحات العربية والمعربة المتعلقة بالسلاح، وهو الكتاب الذي أصدرته الجمعية التاريخية سنة ١٩٥١م. وقد أكد شفيق غربال في مقدمته لهذا الكتاب على أهمية المصطلح فقال: «كل من يشتغل بالبحث التاريخي يدرك مقدار حاجته لأدوات قريبة المنال، سهلة الاستعمال، تسعفه عند اللزوم لفهم اصطلاح يعترضه أثناء قراءة نص...»<sup>(١)</sup>.

وقد زاد اهتمام شفيق غربال بالقضية الاصطلاحية خاصة بعد اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية (١٩٥٦ - ١٩٦١م)؛ حيث ترأس لجنة المجمع للمصطلحات التاريخية والجغرافية، ويذكر شفيق غربال بخصوص مصطلحات التاريخ الإسلامي أن هذه اللجنة توصلت إلى أن المؤرخين يستمدون المصطلحات التي يستخدمونها من العلوم والفنون الأخرى؛ وبمعنى آخر أن علم التاريخ عند المسلمين ليس له مصطلحات خاصة به؛ وعلى هذا تم الاسترشاد بتجربة الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) في كتابه «مفاتيح العلوم» والذي تمثلت طريقته - في حصر المصطلحات - على استعراض الكتب التاريخية والجغرافية واستخراج ما سماه «الألفاظ التي يكثُر ورودها في تاريخ الروم أو فارس أو في المغازي ... إلخ»<sup>(٢)</sup>.

وبناءً على ذلك قامت لجنة المصطلحات التاريخية بضبط الألفاظ الاصطلاحية الواردة فيه وشرحها وتقديمها في ثوب معاصر. وقام بهذا العمل - تحت إشراف شفيق غربال - كل من يحيى الخشاب فيما يخص المصطلحات ذات الأصل الفارسي، والسيد الباز العريني فيما يخص المصطلحات العربية.

وإن كان هناك من تعليق على هذا الجهد فهو الأسف بأنه جهد لم يتم استكمالته بدراسة المصادر الأخرى، وهو الأمر الذي إن تم سيمهد الطريق للوصول في النهاية إلى معجم المصطلحات التاريخية الخاصة بالتاريخ الإسلامي على أساس سليم، وهو الأمر الذي يفتقر إليه حقل التاريخ الإسلامي.

(١) من تقديم محمد شفيق غربال لكتاب السلاح في الإسلام، لعبد الرحمن زكي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م.  
 (٢) من تقديم محمد شفيق غربال لدراسة «ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي» ليحيى الخشاب، والسيد الباز العريني. المجلة التاريخية المصرية. المجلد السابع، ١٩٥٨م، ص ١٦١ و ٢١٣.

وبجانب ذلك قدم غربال إسهامًا في دراسة المصطلحات السياسية في بحثه الذي نشره سنة ١٩٦٠م تحت عنوان «كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية؟»<sup>(١)</sup>. والذي عرض علينا فيه صورًا من تطور المصطلح السياسي، منوهاً بضرورة الاهتمام بالمصطلحات التاريخية والعناية بها لأنها لم تنل ما تستحقه من اهتمام وعناية. ومن النماذج الدالة في دراسة شفيق غربال هذه تطرقه لمصطلح (ثورة) الذي يكثر وروده في المصادر العربية القديمة، ذاكراً أن دلالة هذا المصطلح التي نعرفه بها الآن لم تُعرف في المصادر العربية؛ حيث إنها لم تستخدم إلا منذ زمن قريب جداً. بل إنه في زمن الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لم يكن معنى ثورة معروفاً بالمعنى الذي نفهمه الآن، والثورة (Revolution) تم التعبير عنها في أول قاموس فرنسي عربي - وهو قاموس إليوس بقطر ب (فتنة) و (قومة)<sup>(٢)</sup>. وهذا الأمر يفيدنا في التعامل مع الأخبار المصدرية في مصادر التاريخ الإسلامي التي يرد بها ذكر كلمة ثورة، وهي عبارة عن حركات احتجاجية وانتفاضات لا ترقى لمفهوم الثورة المعروفة في أيامنا، وإذا لم نأخذ هذا الأمر في الاعتبار لن نفهم الحدث التاريخي فهماً سليماً في سياقه الطبيعي.

وكما يبين شفيق غربال أهمية مُراعاة الأبعاد الزمنية في المصطلحات واختلاف دلالة المصطلح من زمن لآخر، يبين كذلك ضرورة الأخذ في الاعتبار الأبعاد المكانية والتي تُحمل المصطلح معاني في مكان لا توجد في مكان آخر به المصطلح نفسه. ومن المصطلحات التي لفتت انتباه غربال في هذا الصدد مصطلح (الإقطاع) والذي وجه سهام نقده - في إحدى مقالاته - لبعض الكتاب في عصره بسبب عدم فهمهم لدلالات هذا المصطلح الشرقية والغربية وخلطهم بين المدلولين؛ حيث إن مدلول كلمة إقطاع في المجتمع الإسلامي غير مدلولها في المجتمع الأوروبي<sup>(٣)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن شفيق غربال وضع برنامجاً وخطه عمل لإنجاز معجم للمصطلحات

(١) مؤتمر مجمع اللغة العربية. الدورة ٢٦، ج ٩ للمؤتمر، مجموعة البحوث والمحاضرات، ١٩٥٩-١٩٦٠م، ص ص

١٩٥-٢٠٢.

(٢) محمد شفيق غربال: كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية، ص ١٩٨.

(٣) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٥٣، السبت ٢١ يوليو ١٩٥١م، ص ٦.

السياسية في الفكر العربي والإسلامي. وقد قسّم هذه الخطة إلى قسمين: أولهما خاص بأنواع هذه المصطلحات، والتي رأى أنها تنقسم إلى خمسة أنواع هي: «النوع يتعلق بفكرة الدولة، وثان يتعلق بفكرة الحكومة، وثالث يتعلق بالقانون والعدل، ورابع يتعلق بالفلسفة، وخامس يتعلق بالحياة الاجتماعية وآداب السلوك والسير، وما إلى ذلك»<sup>(١)</sup>. والقسم الثاني يختص بمراحل هذا البحث. ويؤكد شفيق غربال على ضرورة الرجوع في إعداد هذا المعجم إلى نصوص المعاهدات والاتفاقات وغيرها من وثائق<sup>(٢)</sup>.

وحقيقة الأمر لم يلق هذا الأمر الاهتمام والعناية التي دعا إليها شفيق غربال؛ فلم نجد بين أيدينا فيما أعلم حتى الآن معجمًا للمصطلحات السياسية التي استخدمها المؤرخون في الحضارة الإسلامية، وهي فكرة لازالت قائمة وتستحق الاهتمام الكبير من قبل مؤرخي الحضارة الإسلامية.

ومما يصلح شاهدًا أيضًا على اهتمامات شفيق غربال الاصطلاحية توقعه أمام مصطلح «عصر الجاهلية» شارحًا له ومصوبًا لبعض الآراء تجاهه؛ فيذكر أن كلمة (الجاهلية) لا تعني هنا «عكس المعرفة» بل إنها - بالأحرى - تعني «مخالفة القانون، والتهمد» أو «الجهل بوجود ما هو أفضل»، ويؤيد غربال البعض في تفسيرهم للكلمة على أنها تشير إلى العادات البربرية أو البدوية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه يؤكد على المعنى الديني لها من حيث كونها تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى عبادة الأصنام<sup>(٣)</sup>.

وبالرغم من عدم ميل الباحث إلى استخدام صيغة (العصر الجاهلي) للتعبير عن الفترة السابقة لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأرى أن التعبير المناسب عنها هو «تاريخ العرب قبل الإسلام» بالنسبة لتاريخ الجزيرة العربية لأنه تعبير حيادي لا يحمل دلالات مسبقة قد

(١) محمد شفيق غربال: كيف دخلت بعض المصطلحات...، ص ١٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٧.

(٣) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي. ضمن كتاب: الإسلام الصراط المستقيم. إشراف:

كثيث، و. مورغان. ترجمة: محمود عبد الله يعقوب، مراجعة: نور الدين الواعظ. القاهرة، مؤسسة فرنكلين، بغداد

- القاهرة - بيروت - نيويورك، ١٩٦١م، ج ١ ص ٦٨.

يتضمنها وصف «الجاهلي»، إلا أن تفسير شفيق غربال للمصطلح يحمل بعض الوجهة التي تبرر للبعض استخدامه.

ومن أبرز المصطلحات التي يمكن الوقوف عليها في إسهامات شفيق غربال الاصطلاحية مصطلح (التاريخ الإسلامي). هذا المصطلح الذي لا بد للمتخصص في هذا الحقل أن يعرف تاريخه وجذوره وأبعاده، ولم أجد من توقف أمامه شارحًا تلك الأمور. ولقد حاولت فيما سبق من زمن أن أفتش عن ذلك باحثًا في كتب البيبلوجرافيات كفهرست النديم (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) وكشف الظنون لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) فلم أجد عند مؤرخي الإسلام من استخدم هذا المصطلح في التعبير عن الإطار التاريخي الممتد من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في حالات نادرة لعل أوضحها الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عندما جعل لكتابه عنوان «تاريخ الإسلام» والذي كان الدائرة الأغلب في تراجمه خاصة بالعلماء والمفسرين والفقهاء والمحدثين والمرتبطين بالدين الإسلامي.

وفي تناوله لهذا المصطلح يقوم شفيق غربال بنقد ما اشتهر ولا زال مشهورًا حتى الآن من تقييد استعمال كلمة (إسلامي) نقلًا عن العلماء الأوروبيين في دراساتهم التاريخية في إطلاق وصف نصراني أو مسيحي إلا على الأزمنة السابقة للعصور الحديثة والمعاصرة. ويوضح غربال طبيعة هذا الخطأ بقوله إن الاستعمال الأجنبي له ما يبرره عندهم، وهو الذي جاء نتيجة للفصل بين ما سموه السياسة وما سموه الدين. ويتساءل شفيق غربال: أما عندنا، فما وجه تبريره؟ وما مقياس الإسلامية؟ أهو وقوع الشيء في عصر سابق للمؤثرات الأوروبية؟

ويوضح شفيق غربال ذلك بقوله إن الحضارة الإسلامية كانت مزيجًا من عناصر متباينة شرقية وغربية؛ وعلى هذا فلا يوجد سبب معقول لاستبعاد استخدام مصطلح إسلامي في الفترة التاريخية الحديثة التي شهدت تأثرها بالمؤثرات الأجنبية بينما لا تجردها من هذا الوصف في طور تأثرها بالفلسفة اليونانية القديمة في العصر العباسي مثلًا. مشيرًا إلى أن الحضارة الإسلامية تأثرت بنظم الساسانيين أو الروم، وهذا لم يمنعها من إسلاميتها، وكذلك تأثرت في مرحلة تالية

بالمؤثرات الفرنسية أو الإنجليزية، وهذا أيضًا بالتبعية لا يجعلنا ننزع عنها إسلاميتها<sup>(١)</sup>. ويجب الانتباه إلى حقيقة واضحة في سياقها التاريخي وهو أن شفيق غربال في كتاباته - حتى تلك التي نُشرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م باتجاهاتها العربية - يرى أن إطلاق وصف «إسلامي» أعم وأصدق من وصف «عربي»<sup>(٢)</sup> على هذا المجال من التاريخ. والذي يخرج به شفيق غربال من نتيجة وراء مناقشته المنطقية أنه «لا نستطيع بحال أن نعتبر الحضارة الإسلامية أمرًا طواه الزمان... أو أن التطور الإسلامي قد وقف عند حد معين، بل على العكس نعتبره مستمرًا متصل الأدوار»<sup>(٣)</sup>.

وهذا التفسير - الذي أراه صحيحًا - يجعل الباحث يفتش عن رؤية شفيق غربال في قضية أخرى وهي قضية التحقيب التاريخي والموقع الزمني للتاريخ الإسلامي عنده.

والحقيقة أننا نجد تطورًا ما لدى شفيق غربال في قضية التحقيب أو الإطار الزمني للتاريخ الإسلامي؛ حيث ذكر سنة ١٩٣٨م أن «العالم الإسلامي قد تطور بموجب الفتح العثماني تطورًا جديدًا، كما أنه ليس من شك في أن ذلك الفتح يبدأ عهدًا جديدًا في تاريخ أمم أوروبا الشرقية، ويحق للمؤرخ أن يجعل منه أساس التاريخ الحديث للشرق العربي وللشرق الأوروبي - وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين من الغض من شأن هذا الحادث فأمر لا يقوم على نظر قويم؛ فالقول مثلاً بأن المصريين وغيرهم قد خضعوا لحكام من الترك قبل خضوعهم للترك العثمانيين، وأن كل ما جرى في القرن العاشر هو استبدال ترك بترك يغفل فروقًا جوهرية بين النوعين من حكم الترك، ولا يستطيع أي مستقص لأحوال المصريين أو العراقيين إلا أن يدرك مقدار اختلاف طبيعة الحكم السلجوقي في بغداد والخلافة العباسية قائمة، والحكم المملوكي في القاهرة،

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، (أعلام الإسلام ٨). القاهرة، دار

إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م، ص ٣.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، القاهرة، دار القومية، ١٩٦٢م، ص ١٨. ويُلاحظ أن شفيق غربال -

بالرغم من ذلك - يستخدم مصطلح (التاريخ العربي) في الكتاب نفسه في سياقات خاصة. انظر: من زاوية

القاهرة، ص ص ٩-١٠.

(٣) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٤.

وتقاليد الفاطميين والأيوبيين مستمرة، عن حكم السلاطين العثمانيين للمصريين وللعراقيين على يد نوابهم من الباشوات، تؤيد هؤلاء أو تعرقلهم جماعات من أجلاف الجند وأخلاق الناس. وأين هؤلاء الباشوات من سلاطين بغداد وسلاطين القاهرة؟ وأين إدارتهم العابثة من تلك الدواوين العربية اللسان الجامعة لكل ذي بيان ولكل صاحب فضل؟<sup>(١)</sup>

ومعنى ذلك أن شفيق غربال بذلك يحدد حقل التاريخ الإسلامي بنهاية العصر المملوكي، إلا أننا إذا تتبعنا كتابات شفيق غربال زمنياً سنجده يغير هذا الرأي؛ فهذا الذي ذكره غربال سنة ١٩٣٨م سرعان ما قام بتغيير رأيه فيه في أكثر من موطن من كتاباته المختلفة ففي سنة ١٩٤٦م وفي مقالته التي عنوانها «أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث» يذكر أن العصر الحديث في مصر يبدأ عند نهاية القرن الثامن عشر<sup>(٢)</sup>. إلا أنه في سنة ١٩٤٩م يراوح بين الرأيين ويذكر أن مصر في ظل الحكم العثماني عاشت على ما خلفه له تراثها، فلم تزد عليه، وأن هذا العصر الذي يمكن تسميته بعصر الأمراء المماليك هو «عصر الانتقال للعصر الحديث»<sup>(٣)</sup> ويذكر في السنة التالية - ١٩٥٠م - أنه قد امتدت بعد نهاية القرن الثامن عشر عوامل التغيير في المجتمع الإسلامي سواء في مصر أيام محمد علي أو في الدولة العثمانية أيام سليم الثالث ومحمود الثاني أو في إيران أيام فتحي علي شاه<sup>(٤)</sup>.

ورؤية شفيق غربال الجديدة والمكتملة والتي ظل مؤمناً بها حتى رحيله أن تاريخ مصر الإسلامية على سبيل المثال يتم تقسيمه إلى فترتين مختلفتين كل الاختلاف في الطول: فالأولى تستغرق من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر، بينما تشمل الثانية السنوات

(١) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، حسين مؤنس. القاهرة، مطبعة حجازي، ط ٢، ١٩٣٨م. ص ص (د - هـ).

(٢) محمد شفيق غربال: أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وأثرها في مركز مصر الحاضر. [ضمن محاضرات الموسم الثقافي الأول للجامعة الشعبية (التي أُلقيت بدار الجمعية الجغرافية الملكية، مارس - مايو ١٩٤٦م)]. القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧م، ص ٨.

(٣) محمد شفيق غربال: في متحف الحضارة المصرية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٣١، السبت ١٨ مارس ١٩٤٩م، ص ٦.

(٤) محمد شفيق غربال: كتب جديدة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٠٨، السبت ٩ سبتمبر ١٩٥٠م، ص ٦.

التالية حتى عصره في منتصف القرن العشرين، مؤسسًا هذه الرؤية بقوله: «شهدت الفترة الأولى تَكْوُنَ ثقافة إسلامية بلغت قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتماسك سواء في أيام ازدهارها أو في عصر انحطاطها، وسواء نظرنا إليها من وجهة بنائها الداخلي أو من وجهة علاقاتها الخارجية. أما الفترة الثانية فقد شهدت إخضاع تلك الثقافة لدوافع وحركات من الشد والجذب، كانت ذات تأثير بليغ في كيانها»<sup>(١)</sup>.

ويمكن القول إن نظرة شفيق غربال إلى الحدود الزمنية لحقل تخصص التاريخ الإسلامي استمرت حتى رحيله، وذلك لأننا نجد أنها كذلك في كتاب «منهاج مفصل» والصادر سنة ١٩٦١م أي في السنة نفسها التي رحل فيها؛ يؤكد فيه بصورة جلية على تبعية العصر العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر للفترة السابقة عليه - أي الإطار الزمني الشائع للتاريخ الإسلامي - أكثر من تبعيته للفترة اللاحقة عليه، ويبين أن التغيير الطفيف الذي أصاب الأقطار العربية والإسلامية نتيجة للتبعية العثمانية لم يمس شيئًا أساسيًا من مقدمات المجتمع حيث «بقيت عناصره كما كانت: فلاحوه وبدوه وصناعه وتجاره وعلماءه وأجناده وأصحاب المناصب. وما بين تلك العناصر من العلاقات بقي كما كان. ونظم حيازة الأرض ونظم الجباية هي هي، والواقع الذي يحدث كل يوم هو هو، والمثل الأعلى هو هو»<sup>(٢)</sup>.

ويختلف شفيق غربال في هذه الرؤية عن مؤرخي التاريخ الحديث الذين لا يزالون حتى الآن يدرجون العصر العثماني ضمن دراساتهم، كما أن مؤرخي التاريخ الإسلامي والوسيط يستبعدونه من دائرة اهتماماتهم البحثية ويقصرون ويحددون مدى زمنيًا لدراساتهم بنهاية العصر المملوكي في بدايات القرن السادس عشر الميلادي مقتدين في ذلك باتجاه بعض المستشرقين في وضع حدود فاصلة تعسفية بين الفترات التاريخية، بالرغم من وجهة جميع الاعتبارات التي ذكرها شفيق غربال ومصادقيتها.

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر. نقله إلى العربية بمعاونة محمد رفعت. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص ٧٨-٧٧.

(٢) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم. القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦١م، ص ١٣٠.

## ثانياً- قضايا الكتابة التاريخية :

ينوه شفيق غربال بقضية مكانة التاريخ في الحياة العقلية العربية، والدور الذي قام به علم التاريخ تجاه العلوم اللغوية والأدبية والدينية، وتجاه أفراد المجتمع في معاملاتهم، وكذلك تجاه الحكومات التي لم تستغن عن التجارب التاريخية في سياساتها. وأن التاريخ العربي الإسلامي كان واحدًا من أهم أدوات نشر الثقافة العربية الإسلامية بين مختلف شعوب دار الإسلام؛ وبالرغم من ذكره لهذه الحقيقة، إلا أنه يرى أن طلب التاريخ عند المسلمين كان غالبًا لمجرد لذة الطلب والقراءة مستشهدًا بروايات عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) والمسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). كما يستخلص حقيقة عدم قيام المسلمين بفصل التاريخ عن المواد النظرية، والتي ترتب عليها عدم وجود دراسة نظامية للتاريخ قبل العصر الحديث، كما أن النقاد لم يتعرضوا لأساليبه.

ويؤكد غربال على ضخامة الإنتاج التاريخي عند المسلمين، إلا أنه يوضح أن هذه الضخامة تهولنا مظهرًا لا حقيقة وذلك لثلاثة أسباب هي:

- ١- كثرة الأسانيد، وبدل على ذلك بقوله: «إذا حذفنا الأسانيد من تاريخ دمشق لابن عساكر أمكننا أن نهبط بالمجلد الواحد من ذلك التاريخ عشرات الأوراق إلى خمس ورقات».
- ٢- أن المؤرخين اعتادوا أن يوصلوا ما أعدوه بمادة منقولة من كتب السابقين نقلًا حرفيًا وبذا تكبر مصنفاتهم.

٣- هناك من المؤلفات التاريخية ما يصعب اعتباره كتبًا بالمعنى المؤلف، وذلك مثل كتاب من جمع بين أختين، وكتاب من تزوج ابنة امرأته، وكتاب من وقف على قبر فمثل بشعر، أو كتاب للحاملين لاسم عبد المؤمن أو عوض.... إلخ<sup>(١)</sup>.

وتناول شفيق غربال القضية الأسلوبية في كتابة التاريخ عند المسلمين في العصور الوسطى على اعتبار أنها تُعد جزءًا من تراث المدنية العربية. ويرصد في ذلك الشأن ذبوع أسلوب الخبر عند مؤرخي الإسلام الأوائل، وهو الأسلوب الذي يجمع بين النظم والنثر ويحرص على إثارة انتباه السامع أو القارئ؛ ولهذا نجد أن كثيرًا من كتابات هؤلاء المؤرخين تعتمد على الذوق الفني أكثر

(١) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب. مجلة مجمع اللغة العربية. ج ١٤ سنة ١٩٦٤ ص ٢٥-٢٦.

من اعتمادها على الأمانة التاريخية، ضارباً بذلك نموذجاً من كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥ م) يتضمن كلاماً تم بين معاوية وعمرو بن العاص والذي من المؤكد دار في جلسات سرية<sup>(١)</sup>، لم يقل لنا المؤرخ الذي عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كيف بلغه هذا الكلام، بالرغم من أنه ربما كان له أصل من الواقع ولكن لا سبيل إلى نفي ما أدخلته عليه وفيه صناعة المؤرخين. كما يتطرق للطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢ م) ذاكراً أنه - كما قال في مقدمة كتابه في التاريخ - أنه أدى كل ما ورد في كتابه على نحو ما أدى إليه دون استخراج بعقل، ولا استنباط بفكر<sup>(٢)</sup>.

ولا ينفي شفيق غربال عن المؤرخين المسلمين محاولة تنفيذ بعض الأفكار العظيمة في الكتابة التاريخية؛ ضارباً على ذلك مثلاً بالفكرة التي قام على أساسها كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠ م) المعروف؛ غير أن غربال يرى أن فكرة الكتاب أعظم من تنفيذه، كما أنه يضع مسكويه في سياقه الزمني ويقول إنه وفق توفيقاً كبيراً حينما أخذ يقترب من عصره، فاستفاد استفادة حقيقية من تجاربه شارحاً أسباب الحوادث ونتائجها.

وكما درس شفيق غربال مؤرخين يتسع نطاق التاريخ لديهم ليحيط بالشعوب عموماً وبشعوب دار الإسلام خصوصاً، درس المقرئزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١ م) والجبهرتي (ت ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢ م) والذي يُضَيِّق نطاق التاريخ لديهما فيؤرخان لما يخص وطنهما مصر.

وبالرغم من أنه لا يخفي على شفيق غربال إسهامات كبار المؤرخين المسلمين كابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦ م) وغيره في محاولاتهم التفسيرية<sup>(٣)</sup>، إلا أنه يصف التأليف التاريخي في معظمه بأنه أضعف ما خلفته الحياة العقلية العربية، مع إدراكه لمعرفة المؤرخين العرب لبعض معالم مناهج النقد التاريخي والمستمدة من مناهج دراسة الحديث النبوي وأسباب هذا الضعف في

(١) انظر: أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال. تحقيق: عبد المنعم عامر، ومراجعة: جمال الدين الشيال. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٥٩ م، ص ١٦٩ و ١٧٧.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٧ م، ج ١ ص ٨٧.

(٣) محمد شفيق غربال: التجمع والتفرق في الشرق العربي. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٩، السبت ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨ م، ص ٦.

رأيه ترجع إلى:

- ١- ضعف الخيال التاريخي أو التصور.
- ٢- انعدام أي إحساس يذكر بالكفاح بين قوتي الخير والشر في التاريخ أو بالفروق بين الأمم.
- ٣- عدم التحليل الدقيق للشخصيات التاريخية.
- ٤- ندرة أن يبدي واحد منهم ما يدل على رغبة قوية في الاستطلاع والتفهم والتعرف على البعيد عنه زمانًا ومكانًا من الوقائع والحقائق<sup>(١)</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك ينقد شفيق غربال المؤرخين المسلمين في عدم قيامهم بالتركيب، ويذكر أنه أقل ما عني به علماءنا الأقدمون. والتركيب كما يذكره هو العرض المعقول المعلن، وإن كان موجزًا أو قليل التفصيل - لنمو التاريخ الإسلامي طبقًا لاجتهاد المؤلف ونفاذ تصوره ووضوح فكرته. ويُرجع غربال أسباب قلة الاهتمام بذلك إلى انشغال علمائنا الأقدمين بالجمع والرواية من جهة وانغماسهم جسدًا وروحًا في محيط الحوادث من جهة أخرى<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من النقد الذي يوجهه غربال للكتابة التاريخية عند المسلمين إلا أنه لا يهمل التأكيد على أن علم التاريخ في الحضارة الإسلامية يتسم بصفتي العظمة والإنسانية، وأنه يخلو من الكثير من الشوائب الموجودة في كثير من كتب التاريخ عند الأمم الأخرى<sup>(٣)</sup>.

ومما يرتبط بقضايا الكتابة التاريخية قضية الإلهام عند المؤرخين المسلمين، والتي تناوّلها شفيق غربال - متأثرًا بأفكار أستاذه أرنولد توينبي - في مقالة بالغة العذوبة<sup>(٤)</sup> محدّدًا في البداية أي مؤرخين يقصد فيقول إنهم «أولئك الذين تأثروا بمؤثرات بلغت في بعض الأحيان حد العنف، وعبروا عن شجونهم أو انفعالاتهم أو إحساساتهم بالتأليف التاريخي». أما الإلهام

(١) محمد شفيق غربال: أعظم كتب التاريخ في هذا الزمان. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٧٨. السبت ١٣ مارس ١٩٤٨م، ص ٩.

(٢) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٦.

(٣) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٢٦.

(٤) محمد شفيق غربال: مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين. مجلة الهلال. السنة ٦٢ - الجزء ١١، نوفمبر ١٩٥٤م، ص ٤٩-٤٣.

الذي يقصده فيعني به «وصف لما ينتاب المؤرخ من جراء الأزمة التي تدفع به نحو ذلك التعبير بالتأليف التاريخي ويوحى إليه أحياناً بموضوع التأليف وبأسلوبه». ويطبق هذا الأمر على بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون الذي لمس في حياته الخاصة جميع ما تعرض له الأندلس والمغرب من مبادي الدول ومراتبها وتزاحمها وتعاقبها... فهو في الجملة - بالنسبة إلى المؤلف - «فرج من بعد ضيق وخلص من بعد شدة... فأما الضيق والشدة فمرجعهما خراب الأندلس وخراب المغرب وتزاحم الدول وتعاقبها، وقد عانى من جراء ذلك ما عانى».

ومن القضايا الشائكة في الكتابة التاريخية عند المسلمين قضية التأثير المذهبي أو كتابة التاريخ بين السُّنَّة والشيعَة؛ حيث يشكو كل من المؤرخين السُّنَّيين والشيعَة من معالجة مؤرخي كل فريق منهم لأحداث التاريخ الإسلامي ويقول: «لا أزعَم أنه من الممكن تأليف تاريخ يرضى به الفريقان تمامًا، إذ أن لكل منهما نظرة تقوم على مقدمات مسلمة لا يقبلها الفريق الآخر»؛ ولهذا يضع شفيق غربال إطارًا يمكن من خلاله علاج هذه المشكلة يتمثل في إنشاء تاريخ يحترمه كل منهما يقوم على:

١- عرض وجهتي النظر.

٢- الخلو من الاستهجان والذم والامتهان.

٣- نوع من التقريب القائم على الاحترام المتبادل والتفاهم وإيثار المصلحة الأعم على المصلحة الأخص<sup>(١)</sup>.

ومن قضايا كتابة التاريخ التي لاقت اهتمامًا لدى شفيق غربال قضية المصادر التاريخية التي لم تلق عناية تستحقها في النشر. وهذا ما بيّنه دعوته لتحقيق كامل لكتاب «تجارب الأمم» لمسكويه<sup>(٢)</sup>، وأيضًا إشارته إلى الإخراج الحقيق - وفقًا لتعبيره<sup>(٣)</sup> - لخطط المقرئزي؛ وكأنه كان

(١) محمد شفيق غربال: أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣- الجزء ٤، إبريل ١٩٥٥م، ص ٤٤.

(٢) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٣٣. ولم تتحقق دعوة شفيق غربال إلا بعد أربعين عامًا؛ وذلك في الطبعة التي حققها أبو القاسم إمامي وصدرت في طهران سنة ٢٠٠١م.

(٣) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٣٣. ومن الجدير بالذكر أن أمنية شفيق غربال - نحو كتاب خطط المقرئزي - لم تر النور إلا خلال السنوات ٢٠٠٤-٢٠٠٤م حين تصدى لتحقيقه أيمن فؤاد سيد وشرته له مؤسسة الفرقان في لندن.

واعيًا بطريق غير مباشر إلى ضرورة إعادة تحقيق هذا الكتاب الجليل تحقيقًا يليق به.

ويهتم شفيق غربال باثنين من أنواع مصادر التاريخ الإسلامي العديدة التي رجع إليها على غاية كبيرة من الأهمية وهما الوثائق والآثار.

بالنسبة للوثائق يعتبر غربال أحد مؤسسي مدرسة التاريخ بالاعتماد على الوثائق في مصر<sup>(١)</sup>، وهو ما يظهر واضحًا في كتاباته المختلفة في التاريخ الحديث، وقد انسحب ذلك أيضًا على اهتماماته بالتاريخ الإسلامي؛ فيذكر أن الوثائق ينبغي أن تكون قريبة للدارس<sup>(٢)</sup>. ويأتي إدراكه لأهمية الوثائق في التاريخ الإسلامي لسببين: أولهما سبب خاص يتمثل في تأخر عصر التدوين نسبيًا، وثانيهما سبب عام وهو أن الكتب ترسل أحكامًا عامة قد تصدق وقد لا تصدق على جميع الأحوال والأمصار؛ ولهذا ينبغي مقارنتها بالوثائق التي تتناول ما حدث فعليًا<sup>(٣)</sup>. ومن الجدير بالذكر أن شفيق غربال وإن لم يساهم في حركة نشر الوثائق العربية إلا أن له جهود ملموسة في الاهتمام بها ونشرها، وهو ما نراه بارزًا في إدراكه لأهمية الوثائق البريدية العربية في تصحيح أحكام الكتب التاريخية<sup>(٤)</sup> وهو الأمر الذي دفعه إلى تكليف أدولف جروهمان وهو واحد من أبرز علماء هذه الوثائق القلائل إلى تأليف كتاب عن هذه الوثائق لتنتشر له الجمعية التاريخية. وبالفعل قام جروهمان بالاستجابة لهذا التكليف ووضع كتابه: *From the world of Arabic Papyri* والذي نشرته الجمعية التاريخية سنة ١٩٥٢م، وهذا الكتاب يحوي مقدمة مطولة عن البريدات العربية، كما يضم نشرًا للعديد من الوثائق البريدية من مجموعات بردية مختلفة.

كما أن شفيق غربال في دراسته للتاريخ الاقتصادي العربي ينوه بحقيقة أن العمل في الوثائق العربية لا زال في مبدئه<sup>(٥)</sup>، وفي دراسة له أخرى عن تاريخ الأزهر يعلق على الدراسات التي

(١) سامي خشبة: مفكرون من مصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١٩٥.

(٢) من تقديم شفيق غربال لكتاب: السلاح في الإسلام، لعبد الرحمن زكي.

(٣) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٧.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، لأرشيبالد لويس. ترجمة:

أحمد عيسى. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص ٣٥ و ٣٨.

قامت حوله بقوله «لا أعرف أحدًا رجع إلى الوثائق الأصلية، بل لا أعرف أحدًا ابتداءً بجمصر تلك الوثائق فنحن إذن في البداية وأمامنا كل شيء»<sup>(١)</sup>. وبالرغم من تكرار هذه الدعوة إلا أن الاهتمام الذي تلقاه الوثائق لا زال محدودًا جدًا، كما أن نشر الوثائق مصاب بالشلل.

وبجانب ذلك اهتم شفيق غربال بنصوص الوثائق العربية التي ضاعت أصولها، كمجموعة الوثائق الفاطمية الذي أوصى مجلس إدارة الجمعية التاريخية برئاسة شفيق غربال في جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٩٥٦م بنشرها مع توصية بأن يقوم بتحقيقها جمال الدين الشيال وإعدادها للنشر، وبالفعل صدرت هذه المجموعة في عام ١٩٥٨م<sup>(٢)</sup>.

هذا عن الوثائق، أما بالنسبة للآثار فإن شفيق غربال يرى أنها إن أحسن استعمالها تقدم للمؤرخ خاصة في الموضوعات الاقتصادية أدق المعلومات وأغزرها وأصحها<sup>(٣)</sup>. ويأتي اهتمامه الكبير بالآثار واضحًا في إنشاء متحف الحضارة المصرية والذي كان غربال أنشط أعضاء اللجنة المكلفة بإنشائه وأكثرهم إنتاجًا، وظل في جهد متواصل لعدة سنوات حتى ظهر هذا المتحف إلى النور سنة ١٩٤٩م. وضم هذا المتحف قسمًا خاصًا بتاريخ مصر الإسلامية.

وهناك نوع من التاريخ أسماه غربال «التاريخ الأثري»<sup>(٤)</sup> منوهاً بأن هذا النوع من التاريخ ليس بالشيء الجديد، بل هو من أهم ما عني به المصريون في مختلف عصور تاريخهم، وقد طلبوه مرتبًا بالخطط<sup>(٥)</sup>. ويؤكد شفيق غربال على أهمية أسلوب الخطط في الكتابة التاريخية فيذكر أنه يجمع بين مزايا المرجع، يرجع إليه الباحث لتحقيق جزئي أو تفصيلي، ومزايا الدراسة المستفيضة لموضوع أو لمطلب، وهو أيضًا أسلوب يتميز بصفة الجمع بين العلم القديم الموروث، وبين ما طرأ عليه من

(١) محمد شفيق غربال: صحيفة من تاريخ الأزهر. مجلة الأزهر. المجلد ٢٣- الجزء ٩، رمضان ١٣٧١هـ- مايو ١٩٥٢م، ص ٥٩.

(٢) عبد المنعم الجميبي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - دراسة تاريخية لمؤسسة علمية ١٩٤٥-١٩٨٥م، ص ١٠٩.

(٣) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: القوى البحرية والتجارية، ص ٣٧.

(٤) محمد شفيق غربال: رسالة المؤرخ. مجلة الهلال. السنة ٦٥- الجزء ٤، أبريل ١٩٥٧م، ص ١٣.

(٥) محمد شفيق غربال: وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط. [ضمن التاريخ والآثار- الحلقة الدراسية

الأولى ٤-٤ من فبراير سنة ١٩٦١م]. القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٢م.

تجديد أدى إليه تقدم البحوث<sup>(١)</sup>. ومما يندرج ضمن التاريخ الآثاري الفنون والصناعات، ويمكن للقارئ لكتابات غربال أن يخرج بنتيجة مفادها إيمانه الكامل بأنها من خير المظاهر التي تتجلى فيها الشخصية العربية والإسلامية<sup>(٢)</sup>؛ ولهذا فهو يدعو المؤرخين إلى الاهتمام بها كمصدر لا غنى عنه في بحوثهم، بل إنه نفسه يقوم بتقديم برنامج وخطة عمل لمشروع جديد عن الخطط المصرية<sup>(٣)</sup>، وهو مشروع لم يدخل حيز التنفيذ حتى الآن، ولا زال صالحاً.

وآخر قضية يمكن تناولها ضمن هذه المجموعة هي قضية الاستشراق وكتابة التاريخ الإسلامي. وبطبيعة الحال لا يمكن النظر إلى حركة الاستشراق على أنها اتجاه واحد بل إنها تتضمن بداخلها العديد من الاتجاهات، إلا أن هناك سمات عامة لكتابات الكثير من المستشرقين في مؤلفاتهم في موضوعات التاريخ الإسلامي، وهذه السمات يحصرها شفيق غربال<sup>(٤)</sup> فيما يأتي:

١- حسن استخدام الأصول العربية.

٢- التمكن من مناهج النقد والتحليل.

٣- عرض التاريخ الإسلامي كفصل أساسي من فصول تاريخ الإنسانية يؤثر فيها وتؤثر فيه، وبه من الفضائل أو الرذائل كأبي جماعات إنسانية.

٤- دراسة ماضي الأمم التي تكونت منها الأمة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى قدرة المستشرقين على تعليل موقفها من الإسلام وما لها بعده وأثرها في الحضارة الإسلامية.

٥- دراسة ديانات التوحيد ومعتقدات الجماعات، وبهذا يقدر المستشرقون العوامل الدينية وأثرها في المجتمعات الإسلامية، كما يستطيعون عرض الفرق والحركات الانفصالية دون الوقوف منها موقف البغضاء والكراهية.

٦- معرفة أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الأمم فلا يستأثر التاريخ السياسي

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ١٧.

(٣) محمد شفيق غربال: وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط، ص ص ١٤٩-١٥٣.

(٤) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٦.

أو الحربي والطبقات الحاكمة بكتاباتهم للتاريخ بل ينال العامل والفلاح وطبقات العمال والفلاحين دورهم الذي يستحقونه في التاريخ.

٧- محاولة التركيب بعد التحقيق، أي العرض المعقول المعلن للتاريخ الإسلامي طبقاً لاجتهاد المؤلف ونفاذ تصوره ووضوح فكرته.

ويجب التفرقة في رؤية شفيق غربال تجاه المستشرقين بين الفكر أو الفلسفة التي تحكم تعاملهم مع المادة التاريخية وبين توظيف الكثير منهم لهذا الفكر لخدمة بعض الأغراض غير العلمية؛ وهو ما يظهر في مناقشات غربال وردوده وتعقيباته على كثير من الآراء الاستشراقية التي لا تدل على فهم صحيح لحقائق التاريخ الإسلامي، ومن ذلك:

١- ربطه بين بعض صور حركة الاستشراق وبين حركة الشعوبية المعروفة في التاريخ الإسلامي قائلًا بأن خصوم العرب [والمسلمين] قديمًا وحديثًا يصدرون عن بغضاء وحقد هادفين إلى الحط من قدر العرب ودورهم التاريخي في الماضي والحاضر، مستشهدًا بالعديد من الاستشهادات الدالة على ذلك سواء من حركة الشعوبية أو حركة الاستشراق<sup>(١)</sup>.

٢- تأكيده على عدم تغييب عامل الزمن ودوره في اختلاف حركة الاستشراق ويرى غربال أن الاستشراق قبل انتقال فكرة التنظيم العالمي إلى حيز المباحث السياسية العلمية - أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - جاء مواكبًا لحركة الاستعمار الأوروبي لبلدان العالم الإسلامي، ذلك من أجل تحقيق مصالح أوروبية مختلفة يأتي من بينهما: تقديم حقائق عن الإسلام والمسلمين لتيسير مهمة الحاكم الأوروبي، وخلق ميادين جديدة لانتشار الأفكار الأوروبية خاصة ما يتصل منها بالمذاهب الاجتماعية... إلى غير ذلك. ويؤكد غربال على أن هذه المصالح الأوروبية تؤسس على فكرة أن رسالة الإسلام قد قضيت وأنه لا رجاء للمسلمين إلا بأخذ فكرة الحركة عن المجتمع الأوروبي والتخلي عن فكرة المحافظة والسكون<sup>(٢)</sup>.

٣- تعليقه على رأي برنارد لويس عن العقلية العربية وأنها عقلية ذرية تنظر إلى الأشياء على

(١) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٧٤.

اعتبار أنها كليات متفككة لا رابطة بينها ولا يتركب منها كل واحد، يقول: إن هذا الرأي يعيبه أمران: أولهما إطلاقه لهذا الحد. وثانيهما أنه نظرة مُحدّث من رجال القرن العشرين متأثرة بنظرة العالم وتفكيره في هذا القرن، ويحكم غربال على هذه الرؤية الظالمة للعقلية العربية بأنها لا تستحق منا أن نعترف لها بالسلامة من كل شك أو أن نسلم لها بكل الصحة<sup>(١)</sup>.

٤- حديثه عن الرأي الشائع القائل بأن العرب ما هم إلا نقلة للعلوم لمن أثبتوا فيما بعد أنهم أولى بها منهم فيذكر أن في ذلك كل الفضل لثلاثة أسباب:

أ- أن نقل العلم يفيد تحصيله ثم دره ثم نشره.

ب- أن العلم يتطور بانتقاله من مرحلة لأخرى.

ج- تعدد المنابع التي أخذ عنها العرب من هندية وفارسية وقبطية وآرامية ومصرية ويونانية وأن ما فعله العرب من خلق مركب واحد من هذه العناصر المتباينة يُظهر الأصالة الحقيقية لهم<sup>(٢)</sup>.

٥- مناقشته الرأي القائل بأن معظم أصول العلماء الكبار غير عربية وأنهم من الأعاجم، ورد على ذلك بأن هذا الأمر يُعد فخراً للعرب لأنهم نجحوا في إلحاق أهالي هذه الشعوب بهم في سبيل تكوين مجتمع واحد، ونجحوا في ذلك، والدليل عليه إلحاقهم مبتكرين خالقين مبدعين، والابتكار والخلق والإبداع ليس أبداً من صفات الأذلاء<sup>(٣)</sup>.

ويتوقف شفيق غربال بالدرس بالتحليل أمام مدرسة الاستشراق الفرنسية خاصة ما يرتبط منها بدراسة تاريخ الشام في العصر الإسلامي، وهي المدرسة التي تعتبر الشام امتداداً طبيعياً لانتشار الشعوب الأوروبية من يونانيين ورومانيين، ولكن ليس من الطبيعي عندها أن تكون الشام عربية أو تابعة لدول إسلامية كالطولونيين والإخشيديين أو أن يكون من سكانها مسلمون. ويؤكد شفيق غربال هذه الرؤية عن طريق فحص أعمال اثنين من كبار مستشركي

(١) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٧.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠-٢١.

هذه المدرسة، وهما: سوفاجيه Sauvaget ولامانس Lammens.

وإذا أخذنا لامانس كدراسة حالة معبرة عن فكر شفيق غربال تجاه أعماله سنجد شفيق غربال يخرج بعدة نتائج بناءً على نقده للامانس، والذي نلخصه في أربع نقاط هي:

١- إن تخصص لامانس في الكتابة عن العصر الأموي ليس بهدف تحري الإنصاف لهذه الدولة وإنما بهدف إفساد التاريخ العربي عن طريقتين: أولاً مجرد الرغبة في معارضة جمهرة المؤرخين المسلمين في تنديدهم ببني أمية. وثانيتهما محاولة إثبات أن فضل الأمويين يرجع إلى أن سياستهم امتداد لسياسة تجار قریش قبل الإسلام أي أنها سياسة كانت قليلة التأثير بالاعتبارات الدينية.

٢- التناقض الكبير الذي يقع فيه لامانس؛ فمثلاً في موطن يسلم بحركة استيطان العرب قبل الإسلام في بلاد الشام، وما كانت لهم فيه من دول وإمارات، ثم في موطن آخر يذهب إلى أنه لا يوجد في الشام مسيحيون من أصل عربي.

٣- اتباع لامانس لطريقة توهيمية في عرضه عن طريق لي عنق النصوص لخدمة الأفكار المسبقة التي لديه، ويضرب غربال مثلاً على ذلك باستشهاد لامانس بأحد نصوص المقدسي (ت نحو ٥٣٨٠/٩٩٠م) في كتابه «أحسن التقاسيم» الخاصة بازدهار تجارة بلاد الشام في العصر الإسلامي، حيث نرى لامانس يستنتج منها أعظم موارد الشام التي لم تفلح اضطهادات المسلمين وحكمهم المزري لها عن إفقارها. فبدلاً من أن يقنعه هذا النص بازدهار الشام في العصر الإسلامي يجعله يؤكد من خلاله على فكرته المسبقة عن الاضطهاد الإسلامي والحكم المزري للمسلمين.

٤- افتقار آراء لامانس إلى الأسس السليمة التي يبني عليها نتائجه وعدم دقته في كثير من المعلومات التي يذكرها كقوله بوفاة سليمان بن عبد الملك في حصار القسطنطينية وهو خطأ<sup>(١)</sup>، أو ترويجه لأفكاره الخاصة وإسقاطها على التاريخ الإسلامي؛ كقوله عن حرمان غير العرب من الحقوق السياسية، أو فكرته عن تطلع أهل الشام إلى ظهور السفياياني نصير

(١) الصواب هو أن سليمان بن عبد الملك توفي سنة ٥٩٩/٧١٧م في دابق من أرض قنسرین بین حلب ومعرّة النعمان

بالشام. انظر: الطبري: المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٤٦.

«الحرية الشامية» حيث إنه كلام لا يستند إلى شيء ولا يوجد مصدر واحد تحدث عن الحرية الشامية، أو ذكره وجود مملكة لاتينية متماسكة، مع أن ذلك يُعد وهمًا في ظل ما هو معروف في تاريخ الصليبيين من الشد والجذب بين الأمراء الإقطاعيين على مختلف مراتبهم، وبينهم وبين الكنيسة، وبين الجاليات التجارية الإيطالية، أو بين الصليبيين الذين ولدوا في الشام والصليبيين الوافدين حديثًا<sup>(١)</sup>.

### ثالثًا- قضايا التاريخ الإسلامي العام :

لشفيق غربال إسهامات في الكثير من موضوعات التاريخ الإسلامي بدءًا بتاريخ العرب قبل الإسلام، ثم عصر الرسول ﷺ، والعصور التالية له من راشدین وأمويين وعباسيين، كما كتب في تاريخ الغرب الإسلامي بمجناحيه المغربي والأندلسي، وكذلك لم يغب عن كتاباته الحديث في تاريخ أفريقيا الإسلامية، وتاريخ الشرق الإسلامي والوجود الإسلامي في الهند والصين... إلى غير ذلك. يضاف إلى ذلك أن له إسهامات في الكتابة في الجوانب الحضارية في التاريخ الإسلامي سواء كانت نظرًا أو ما يرتبط منها بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني... إلخ.

والإطار الذي يجب شفيق غربال أن يتحرك فيه عند دراسة الحضارة الإسلامية هو الذي أفصح عنه في إحدى مقالاته والذي يمكن إيجازه في خمس نقاط هي:

- مصادر الحضارة الإسلامية وفروعها.
- تتبع الحضارة الإسلامية في انتشارها والتغيرات التي طرأت عليها.
- كيف تطورت الحضارة الإسلامية؟.
- العناصر البشرية التي كانت وراء التطور والدوافع التي كانت تسيروها.
- العقبات التي كانت تقف أمام تطور الحضارة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

وليس من هدف الدراسة تتبع مختلف موضوعات شفيق غربال في تاريخ الإسلام وحضارته.

(١) انظر نقد شفيق غربال لأراء لامانس في: دائرة المعارف الإسلامية. ج١٣، ص ص ١٠٥-١٠٩.

(٢) محمد شفيق غربال: الحضارة العربية بإسبانيا. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٢٨، السبت ٢٧ يناير ١٩٥١م، ص ٧.

ويكفي القول - اختصاراً - إن طريقة غربال في كتابة هذه الموضوعات محملة بالتحليلات والآراء والمقارنات والاستنتاجات وعدم الوقوف فقط على الأحداث والتفصيلات التاريخية التي تملأ المصادر.

ومن الممكن تناول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الإسلامي العام عند شفيق غربال، وأولها قضية تطور الخريطة الزمنية للعالم الإسلامي، والتي تطرق إليها غربال في دراسته لسياسة التوسع الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية. ويقسم غربال دراسته للمجتمع الإسلامي خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة إلى مرحلتين: أولاهما مرحلة التأسيس وتضم القرنين الأول والثاني. وثانيتها مرحلة التطوير وتضم القرون الثلاثة الأخرى<sup>(١)</sup>.

ويعتبر شفيق غربال من المؤيدين للرأي القائل بأن حركية انتشار الإسلام جاءت عن طريق سلسلة من القفزات السريعة، وأن هذه الحركية يمكن رصدها زمنياً عبر أربع درجات تتمثل في:

١- الفترة من ١٠ - ١٣٣ هـ: توسع رقعة الحكم الإسلامي من أواسط آسيا شرقاً حتى مراكش وإسبانيا في أقصى الغرب.

٢- قرابة قرنين ونصف ظل العالم الإسلامي كما هو؛ امتد بعدها حتى شمل غربي أفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمالى الهند، وكان ذلك بين عامي (٤٠٠-٥٠٠ هـ / حوالي ١٠٠٠-١١٠٠ م).

٣- وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع اندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبيريا وبقية أرجاء الهند وإلى أندونيسيا.

٤- أوضحت خريطة العالم منذ مطلع القرن التاسع الهجري كما هي عليه باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة إيبيريا وصقلية وتغلغله في بعض المناطق - على نطاق ضيق - لاسيما في أفريقيا<sup>(٢)</sup>.

وبناء على هذا التدرج الزمني يخرج شفيق غربال في دراسته برأي - يستحق المناقشة - من أن الإسلام في المدة الواقعة بين عامي ١٣٣ - ٤٠٠ هـ / ٧٥٠ - ١٠٠٠ م بلغ تمام نضوجه، وعلى ذلك، فإن

(١) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، ص ٦٤-٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٣ - ٦٤.

المناطق التي دخلت في الإسلام بعد تلك المدة لا يمكن أن تزعم أنها ساهمت مساهمة أصيلة في تطور الثقافة الإسلامية.

ولشفيق غربال نظرات سديدة في واحدة من أخطر القضايا في تاريخ الإسلام وهي العوامل التاريخية التي أدت إلى شطر العالم الإسلامي إلى شرق أقصى يقع شرق العراق وإلى وسط يمتد من العراق إلى مصر وإلى مغرب يقع غربي مصر. ويذكر أن الشطر في حد ذاته قديم وهو إلى حد ما طبيعي متأثر بحقائق التاريخ والجغرافيا، إلا أنه قد حدثت عوامل تاريخية طارئة فصلت هذه الأقسام بعضها عن بعض، وألهمت كل قسم بكوارثه ونكباته.. فانطوى على نفسه، وجمد على ما هو عليه. ويرصد هذه الأحداث التي أدت إلى نتائجها القريبة والبعيدة إلى انقسام العالم الإسلامي، وتتمثل في:

١- اشتداد الضغط الصليبي على الأقطار الوسطى والمغربية من العالم الإسلامي في حوض البحر المتوسط.

٢- اكتساحات التتار في الشرق التي أدت في نتائجها البعيدة إلى انفصاله عن سائر أقاليم العالم الإسلامي، وبدأت أوضاعه تتضح في فارس والإمارات الفارسية، وأفغانستان، والهند الإسلامية.

٣- إجلاء المسلمين عن الأندلس ومهاجمة المغرب.

٤- حركة التطويق البحرية الأوروبية لبلدان العالم الإسلامي<sup>(١)</sup>.

وفي شرحه المستفيض لنظريته هذه لا يهمل غربال المحاولات التي قامت من أجل إعادة بناء الوحدة الإسلامية؛ وأولها: محاولة الجبهة الإسلامية مواجهة الصليبيين. وثانيها: محاولة الدولة العثمانية إعادة بناء الوحدة الإسلامية، والتي لم تكن باليسيرة، وفشلها في ذلك يرجع إلى ثلاثة أسباب هي:

١- أن هذه المهمة كانت أكبر وأشق مما تصورت؛ ولهذا لم يتم منها إلا إخضاع العرب أو

أكثرهم

(١) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية...، ص ١٢٣.

٢- استحكام العداء بين العثمانيين والإيرانيين وتحكم الفرقة بين السنيين والشيعة.

٣- فشل العثمانيين في طرد البرتغاليين ومن تبعهم - من هولنديين وإنجليز وفرنسيين بعد ذلك - من البحار العربية، وكانوا قد وصلوا إليها في أواخر القرن الخامس عشر<sup>(١)</sup>.  
ويدرس شفيق غربال قضية القبلية والبداءة في التاريخ الإسلامي. ويذكر أنه بالرغم من أن الإسلام أنكر نظرياً فكرة المجتمع الوثني القبلية، إلا أن نظام القبلية بقوته الداخلية وأسلوبه في معاملة الغرباء ظل أمراً مفيداً بحيث لم يكن بالإمكان الاستغناء عنه أو نبذ. وهكذا تم تشكيل القوات المحاربة على أساس قبلي، كما تم تخطيط الأحياء في المدن المحصنة وتوزيعها على أسس قبلية كذلك. وسكان الأقاليم الذين دخلوا في الإسلام لم يكونوا مجرد أعضاء في المجتمع، بل اندمجوا في القبائل وانتسبوا إليها أتباعاً (موالي) كما كانوا يدعونهم، ولم يعاملوا على قدم المساواة مع العرب، إخوانهم في العقيدة.

وظلت مشكلة الموالي - سكان الأقاليم الذين دخلوا في الإسلام وانتسبوا إلى القبائل العربية - مشكلة تحير المجتمع الإسلامي إلى أن جاء الخلفاء العباسيون وتقوض الكيان القبلي<sup>(٢)</sup>. غير أن شفيق غربال يرى أن بذور القبلية والبداءة ظلت كامنة إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي الذي شهد بعثاً جديداً للبداءة مع انقسام المسلمين إلى ثلاث خلافت عباسية وأموية وفاطمية، وأن هذا البعث شهد التاريخ الإسلامي ممثلاً في ثلاث قوى كبرى هي العرب والبربر والأتراك<sup>(٣)</sup>. فالبداءة هي العامل المشترك بين هذه القوى الثلاث.

وبجانب هذه القضية يتطرق غربال إلى قضية ترتبط ببعض جوانبها بالحضارة الإسلامية وهي قضية المؤثرات الحضارية للبحر المتوسط. حيث ينقد غربال الرؤية التي تصدر عن معظم الكُتّاب الأوروبيين والتي لا يعترفون فيها للبحر المتوسط إلا بالحضارة الأوروبية المنحدرة من الأصل اليوناني، وينظرون لأهم البحر التي رفضت الاندماج فيها نظرهم للدخلاء الجامدين أو

(١) محمد شفيق غربال: الجامعة الإسلامية واتحاد العرب، مجلة الهلال، السنة ٦٣ - الجزء ١، يناير ١٩٥٥م، ص ص

(٢) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، ص ٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٤.

المتعصبين. ويرى غربال أن هذه الفكرة سياسية قبل أن تكتسي ثوب العلم، وهي من ناحية العلم كما هي من ناحية السياسة لا تصلح لأي عمل قويم<sup>(١)</sup>. وأن الدول التي قامت حول البحر المتوسط تنوعت ثقافتها وتعددت أشكالها وأوضاعها، أثرت فيها ظروف البحر الثابتة وقربت فيما بينها في بعض عناصرها ولكن لم تستطع أن تحول ثقافتها إلى ثقافة واحدة أو حضارة واحدة.

ويُبرهن على ذلك عن طريق استعراضه للحوادث التاريخية الكبرى التي تبين أن البحر كان ملتقى حضارات وليس حضارة موهومة اسمها حضارة البحر المتوسط. ويذكر أنه تم للرومان إخضاع أمم البحر لحكومة واحدة، وبالرغم من ذلك لم تقم حضارة واحدة وكان نجاح الرومان أتم خارج حوض البحر لا داخله فيما وراء جبال الألب في فرنسا وفي الغرب الأوروبي، ولكن الأمم اليونانية والشرقية لم تنهدم شخصيتها بل احتفظت بمقوماتها وانبعثت منها المسيحية، ثم حدثت الإغارات الجرمانية والعربية الإسلامية والصليبية فتمزقت وحدة البحر السياسية، وتم وضع أساس الأوضاع الراهنة حضارة أوروبية على سواحل البحر الشمالية وحضارة عربية إسلامية على سواحله الشرقية والجنوبية. ولم تخل واحدة منها من مؤثرات البحر فاختلقت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا عن إنجلترا وألمانيا، واختلف المغرب الإسلامي عن إيران والهند ولكن بقيت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا قطعة من أوروبا، ويبقى المغرب الإسلامي قطعة من دار الإسلام<sup>(٢)</sup>.

القضية الخامسة هي قضية البطولة في التاريخ الإسلامي. وكان شفيق غربال مؤمناً بأهمية البطولة ودور الفرد في صناعة التاريخ. والبطولة عنده يمكن أن تكون عمل فرد، ويمكن أن تكون عمل مجموعة، ويمكن أن تتجلى في عمل يحدث بارزاً قائماً بنفسه، ويمكن أن تتجلى في عصر بأكمله أو في حياة طائفة من الشعب، ويمكن أن تكون عملاً حربيًا كما يمكن أن تكون نشاطاً مدنيًا<sup>(٣)</sup>.

ويدخل في إطار إيمان شفيق غربال بالبطولة تصديه للكتابة عن حياة أعمال عدد من

(١) محمد شفيق غربال: حضارات البحر الأبيض المتوسط. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٤٥، السبت ٢٦ مايو

١٩٥١م، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

(٣) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٨١.

رواد الفكر الإسلامي كالحسن البصري (ت ٧٢٨هـ/١١٠٠م)، وأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ/١٠٥٧م)، والغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م). هذا بالإضافة إلى كتابته كذلك عن بعض الشخصيات السياسية المحورية في التاريخ الإسلامي كصلاح الدين الأيوبي، وأحياناً يتبع غربال طريقة المقارنات التاريخية بين الشخصيات باختلاف عصورهم وبيئاتهم، وباختلاف أزمته وأمكنته، كمقارنته بين صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) ومحمد علي الكبير (ت ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م)<sup>(١)</sup>، راصداً لعناصر الشبه والاختلاف بين كل منهما. ويعمل شفيق غربال في دراسته للشخصيات أو تعرضه لها على استخدام المادة التاريخية من أجل الوصول لشخصية صاحب الترجمة، وهو ما عبر عنه بقوله: «منهج ربط شخصية المترجم له بمحركة هامة فيعني المتحدث بصفة خاصة ببيان أثر الرجل في الحركة المقترنة به»<sup>(٢)</sup>.

ونجد صدقاً واضحاً لإيمان شفيق غربال بالبطولة ودور الفرد في التاريخ في اهتمامه بالتراجم كأحدى فنون التأليف التاريخي في الحضارة الإسلامية، ويظهر هذا الاهتمام في عدة صور: أولها - كتابته عن كتب التراجم عند المسلمين باعتبارها أحد العناصر الأساسية للنقد العلمي، ورصده لأنواعها سواء كتب طبقات، أو كتب تراجم عامة، أو خاصة برجال قرن من القرون أو قطر من الأقطار أو حاضرة من الحواضر... إلخ<sup>(٣)</sup>. ثانيها - نقده لحركة التأليف في التراجم عند المسلمين وأنها قلت فيها الترجمة التحليلية التصويرية لرجل واحد<sup>(٤)</sup>.

ثالثها - تأكيده على وجوب الاستفادة من الحدود والضوابط التي وضعها علماء المسلمين القدامى فيما يخص أحكام المؤرخين على الرجال، والتي خلاصتها أن لا مبرر للخوض في الرجال إلا لأغراض التحقيق العلمي طبقاً لأصول العلم وأوضاعه أو مصلحة ظاهرة

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٧٢-٧٣.

(٢) محمد شفيق غربال: الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديث. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠١، السبت ٢١

أغسطس ١٩٤٨م، ص ٦.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

للجماعة أو الأمة<sup>(١)</sup>.

رابعها - ما أعلنه شفيق غربال في شهر أغسطس سنة ١٩٤٨م عن اهتمام الجمعية الملكية للدراسات التاريخية [الجمعية المصرية الآن] وتصديها لإعداد «معجم شامل لرجال مصر منذ أقدم العصور حتى الآن، وهو عمل ضخم، لا يعادله معاجم الألمانية والإنجليزية والفرنسية والأمريكية التي نعرفها، وذلك على الأقل بحكم طول التاريخ المصري»<sup>(٢)</sup>.

وهو يُظهر إيمانه بالبطولة وأثرها في الأحداث التاريخية في مقولته الشهيرة «مصر هبة المصريين» والتي يؤكد من خلالها أن تكوين مصر خلال جميع العصور كان من صنع جماعة المصريين<sup>(٣)</sup>، أي أن هناك نمطًا آخر من البطولة يمكن تسميته بالبطولة الجماعية.

وقام شفيق غربال بتطبيق نظريته في البطولة الجماعية على إحدى المعارك الكبرى في التاريخ الإسلامي وهي موقعة عين جالوت (٥٦٥٨/١٢٦٠م)، ويرى أن البطولة في هذه المعركة مرت بثلاثة أدوار: في الدور الأول كانت بطولة جمع الكلمة والتغلب على النزوع إلى التفرق. والدور الثاني بطولة القرار العظيم في الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين دون انتظارهم في أرض الوطن. والدور الثالث كان البطولة التي بدت في القتال<sup>(٤)</sup>. ومع تعداد غربال للصورة السابقة من البطولة الجماعية إلا أن إيمانه بالبطولة الفردية يفوق اعتقاده بالبطولة الجماعية، ويقول في هذا الصدد: «إن الجماهير وحدها وبلا قيادة لا تستطيع أن تصنع شيئًا على الإطلاق... إن الجماهير دائمًا في حاجة إلى من يكتشفها.. إنها في حاجة إلى رمز تنتقده وتشجعه وتقدهس وتنقل حرارتها إليه.. ثم تسير وراءه.. هذا الرمز هو الفرد.. هو الزعيم»<sup>(٥)</sup>.

(١) محمد شفيق غربال: أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣ - الجزء ٤، أبريل ١٩٥٥م، ص ٤١.

(٢) محمد شفيق غربال: الشخصيات البارزة، ص ٦.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٢.

(٤) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٨٢.

(٥) من حوار أجراه: عبد التواب عبد الحي مع المؤرخ شفيق غربال؛ وذلك في مقالته: «مع المؤرخ شفيق غربال».

والمنشورة بمجلة الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ٢٧.

### رابعًا- قضايا التاريخ الإسلامي الخاص بمصر :

أولى هذه القضايا قضية الصيغة التي يجب استخدامها في التعبير هل تاريخ مصر أم تاريخ المصريين ؟ : ويتساءل شفيق غربال عن نسبة تاريخنا تكون للوطن فنقول تاريخ مصر أم للقوم من المصريين ونقول تاريخ المصريين، أنقصد بذلك أصحاب هذا الوطن أو الوادي في حقبة معينة، أم نطلقه على أبناء الوادي في جميع الحقب ؟ وهل إن أطلقناه على جميع الحقب الزمنية سيكون في ذلك إهمال الصلات الحقيقية التي كانت لنا في ماضينا وفي حاضرنا بمجموعات وحضارات عالمية؟. وإن لم نطلق الوصف مصري على جميع العصور أفلا يكون في ذلك قدر مهم من إهمال العلاقات الحقيقية القائمة بين أطوار التاريخ في هذا الوادي؟، وي طرح غربال هذه التساؤلات المهمة داعيًا المؤرخين إلى مناقشتها من غير استسهال التعميم والتقرير في هذه الشؤون الخطيرة<sup>(١)</sup>.

القضية الثانية هنا هي قضية الأصول العرقية للمصريين. وهي مسألة تشكل رؤية ما لدى البعض إلى الآن<sup>(٢)</sup> بالرغم من عدم تماشيها مع الواقع التاريخي. ولقد تناول شفيق غربال منذ أكثر من خمسين عامًا هذا الأمر؛ خاصة أنه لا بد للمؤرخ أن يتصدى للمشكلات في واقعه ولا ينفصل عنها. وتدور دراسته لهذه القضية على عدة أفكار أهمها:

١- نقد الرأي الذي يظنه البعض ممن يعينهم البحث عن ذراري قدماء المصريين أنهم يعثرون عليهم في ريف مصر أو في طائفة الأقباط، وينقد ذلك بالقول إن الريف المصري لم يكن بعيدًا عن التأثيرات الخارجية كما يفترض أصحاب هذا الرأي حيث كان هو البقعة التي استوطن فيها مرتزقة المحاربين من الإغريق، وكذلك رجال القبائل من العرب وبدو الصحراء، أما من يعتقد أنه سيجد بغيته في طائفة الأقباط فاحتمال وجودهم فيهم مثل احتمال وجودهم في غيرهم<sup>(٣)</sup>، وذلك لأن السلالات المصرية تأثرت عبر تاريخها بمن وفد عليهم واختلط بهم.

(١) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: تاريخ الحضارة المصرية (العصر الفرعوني)، لمجموعة من الكتاب، المجلد

الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م. ص ١.

(٢) انظر على سبيل المثال: جريدة المصري اليوم، الأربعاء ١٥ سبتمبر ٢٠١٠م.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٤.

- ٢- أن الإسلام انتشر في مصر عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين الإسلام<sup>(١)</sup>.
- ٣- اختلاط المسلمين الوافدين بالمسلمين من أهل البلاد، كما اختلط المسيحيون الذين جاءوا من الشام بالأقباط وغيرهم<sup>(٢)</sup>.
- ٤- «ارتباط مصر بدار الإسلام فتح أبوابها - وبخاصة أبواب مدنها - للمستوطنين من البلدان الإسلامية الأخرى، وبخاصة من بلاد المغرب ومن فلسطين وسوريا وقيام دول من المماليك، واعتماد تلك الدول على جيوش مؤلفة من أبناء الرق أدى إلى قدوم جموع من الجوارى والعبيد من مختلف العناصر والأجناس من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن إليهم، أضف إليهم مستوطنين من شتى السلالات الأفريقية»<sup>(٣)</sup>.
- وثالث القضايا بالنسبة للتاريخ المصري الإسلامي تتمثل في قضية السمات الحضارية لمصر. وهي قضية يطرحها غربال على هيئة أفكار دون تقديم تفصيلات خاصة بها، ومن أهمها:
- ١- حدوث نوع من التكافؤ بين الاستمرار وبين التغيير في التاريخ المصري بعد دخول مصر في الإسلام، ولم تشهد رجحان كفة مبدأ التغيير في التاريخ المصري إلا عند استهلال القرن التاسع عشر وبدء الاتصال بالغرب<sup>(٤)</sup>.
- ٢- تطور مصر الإسلامية جرى على نسق خاص بها، مع سرعة تأثره بمبادئ الإسلام الأساسية وبالحرركات الإسلامية عامة.
- ٣- تركز الحياة العامة في الحواضر وبخاصة في الحاضرة الكبرى<sup>(٥)</sup>. وبالرغم من أن مصر كان بها مراكز حضرية لها مكانتها إلا أن الحضارة المصرية ظلت حضارة مجتمع ريفي خلال آلاف

(١) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨-٧٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٥) محمد شفيق غربال: في متحف الحضارة المصرية، ص ٧.

السنين من تاريخها<sup>(١)</sup>.

٤- الخصوصية الحضارية المصرية في العصر الإسلامي وهي تلك الخصوصية التي ظهرت بعض معالمها في اتجاهات معينة للفقه الإسلامي، ومساهمة الأدب الشعبي المصري القديم في الأدب الشعبي العربي<sup>(٢)</sup>.

٥- اتصفت الثقافة الإسلامية في مصر بالوسطية والأصالة، وتميزت ببقائها فترات طويلة وعدم تلقيها ضربات قاصمة أو نكبات كتلك التي تعرضت لها المغرب على أيدي القبائل البدوية، أو الأندلس من إبادة وفناء، أو الشام والعراق وما حل بهما من تدمير وخراب على أيدي المغول<sup>(٣)</sup>.

٦- كان للمسيحيين المصريين سواء من احتفظ بمسيحيته أو تحول إلى الإسلام دور بارز في إجراء الملاءمة بين العناصر الثقافية الوافدة وبين المجتمع المصري<sup>(٤)</sup> ويرى غربال أنه ليس من اليسير الكلام عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلامية، والأسلم - في رأيه - أن يدمج العنصر المسيحي المصري الخاص في مجموع ما ساهم به الفكر الهيليني والفكر السرياني المسيحي في بناء صرح الثقافة الإسلامية عامة<sup>(٥)</sup>.

### نتائج البحث :

وأخيراً يمكن الخروج من هذه الورقة بالكثير من النتائج، لعل من أهمها:

أولاً - أدت موسوعية شفيق غربال إلى تحطيمه للحدود الوهمية بين الفروع التاريخية؛ فلم يقع في أسر القيود التقليدية التي لا زال الكثيرون يضعونها أمام أنفسهم وأمام تلاميذهم. واتجاه شفيق

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٣-٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

غربال في الاهتمام بالموضوعات التاريخية والحضارية للإسلام يتماشى مع ذلك الاتجاه الواضح الذي نجده عند بعض معاصريه؛ ذلك الاتجاه الذي يرى عدم وجود حواجز بين التخصصات التاريخية، وهو ما نجده - على سبيل المثال - في المقابل عند بعض مؤرخي التاريخ الإسلامي الذين لهم إسهامات في التاريخ الحديث، مثل: جمال الدين الشيال، وحسين مؤنس وغيرهما.

ثانياً - نرى أن اهتمام غربال بدراسة التاريخ الإسلامي يرجع إلى بواعث ذاتية وأخرى علمية، البواعث الذاتية تتمثل في قراءاته المبكرة في هذا التخصص<sup>(١)</sup>، وتدريبه للتاريخ الإسلامي لعدة سنوات في مدرسة المعلمين العليا<sup>(٢)</sup>. أما البواعث العلمية فقد حتمها إدراكه بعدم فهم المجتمعات الإسلامية الحديثة إلا بفهم أصولها السابقة على الأزمنة الحديثة، والربط بين ماضي العالم الإسلامي وحاضره، حيث يتبين من البحث إيمان غربال بوصف الحاضر الذي يعيشه بالماضي؛ ففي كثير من الأحيان يكون الحاضر لدى غربال هو الباعث له على دراسة موضوعات تاريخية محددة في التاريخ الإسلامي.

ثالثاً - يظهر من الدراسة سعة اطلاع شفيق غربال وتقصيه للمصادر التاريخية الخاصة بجقل التاريخ الإسلامي من كتب تاريخ عام أو خاص وتراجم وسير ومغازٍ وخطط ورحلات ومعاجم، هذا فضلاً عن كتب الأدب والشعر والفقه والحسبة، بل إنه يقدم أحكاماً نقدية على أساليبها ومناهجها، ودعا إلى الاهتمام بنشر ما لم ينشر منها وتحقيقه تحقيقاً علمياً سليماً. كما أنه أبرز أهمية بعض المصادر الخاصة في كتابة التاريخ الإسلامي كالوثائق والآثار وكتب الفتاوى.

رابعاً - تتصف لغة شفيق غربال في كتاباته في التاريخ الإسلامي بالوضوح والإقناع، والبراعة في العرض التاريخي القائم على صناعة بناء متماسك في أسلوب مشوق وجذاب. ومن أبرز معالم

(١) قرأ غربال كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) بكامل أجزائه وهو لا يزال طالباً في المدرسة الثانوية. انظر: أحمد عزت عبد الكريم: كلمته في تأبين محمد شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية العالية،

ديسمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ١١٠.

(٢) عبد المنعم الجميبي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص ١٦٠.

هذا الأسلوب الإيجاز والتلخيص والتركيز الشديد الذي يدل عليه أن وراء السطور وأحياناً وراء الكلمات معلومات محتزنة تؤكد صرامة الطريقة التي اتبعتها شفيق غربال في إيجاز ما يريد أن يقول، والدقة المتناهية في اختيار الألفاظ التي تعينه على هذا الإيجاز.

خامساً - لم ينتم شفيق غربال لمدرسة معينة في تفسير أحداث التاريخ الإسلامي، وكانت له رؤية متوازنة في دراسة هذا التاريخ تقوم على الإفادة من سمات الكتابة التاريخية عند المسلمين خاصة ما يرتبط منها في إصدار الأحكام على الرجال، وفي الوقت نفسه يدعو إلى الإفادة والتعلم على المدارس التاريخية الأوروبية قديمها وحديثها.

سادساً: اتبع شفيق غربال أسلوب المقارنات التاريخية بين عصر وآخر كالعصرين الروماني والعربي، وبين شخصية تاريخية وأخرى كصلاح الدين الأيوبي ومحمد علي، وبين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات.

سابعاً: ظهر من دراسة التاريخ الإسلامي عند شفيق غربال إيمانه بأهمية دور الفرد أو النخبة أو الصفوة في قيادة المجتمع الإسلامي، وتقديره لحقيقة الدور البارز لأعلام المسلمين في مجريات حوادث التاريخ الإسلامي، وإن كان لم ينف تماماً دور الجماهير، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه على حاجتها إلى الفرد أو الزعيم.

ثامناً: طرح شفيق غربال العديد من المشروعات العلمية التاريخية التي لا زالت صالحة للتطبيق حتى يومنا هذا، وندعو الجمعية التاريخية إلى الاستفادة منها والعمل على إنجازها خاصة وأن بعض هذه المشروعات كانت ضمن خطة العمل التي وضعها شفيق غربال لما يمكن للجمعية أن تنجزه. مثل: مشروعه في إعداد خطط جديدة، ومثل: خطته حول معجم المصريين عبر العصور، وهما مشروعان كبيران لا يقوم بهما إلا المؤسسات.

تاسعاً: يُستشف من بعض إسهامات شفيق غربال ضرورة وجود تخصص بجانب التخصصات التاريخية الأخرى يُعنى بالنقد التاريخي كعلم له أصوله ومدارسه؛ أي أن يكون هناك في أقسام التاريخ ما يشبه ما يوجد في أقسام اللغة العربية حول النقد الأدبي.

عاشراً: تحتاج كل قضية من قضايا التاريخ الإسلامي الست عشرة التي تناولها شفيق غربال في كتاباته المختلفة إلى دراسة بل دراسات خاصة بها. والذي يكفينا أن نذكره هو أن شفيق غربال في دراسته لهذه القضايا أظهر مقدرة كبيرة في النقد والتحليل العميق للروايات والحوادث التفصيلية عبر أماكن وأزمان مختلفة واستقراءها، والتركيب من خلالها لاستخلاص الاستنتاجات المهمة؛ وهو في ذلك يقف على الأرضية نفسها التي يقف عليها كبار مؤرخي التاريخ الإسلامي؛ فهو ليس بهارٍ أو مطلع في حقل هذا التخصص بل إنه يُعد مؤرخاً حقيقياً يفوق الكثير جداً من الأكاديميين المتخصصين في التاريخ الإسلامي الذين لا هم لهم سوى الجري وراء السرد والتفاصيل يجمعون المادة التاريخية من روايات وشواهد ويؤلفون فيما بينها.

عبد محمد



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٣ / ٢١٣٤٩ م